الفصل الثالث

الضاربون في الأرض

الضاربون في الأرض

شباب أطهار، ذوو قلوب فتية نابضة بالإيمان، وإرادات شمّاء، وعزائم لا تعرف المستحيل... يقود خطاهم إلى فجاج الأرض شوق مُبَرِّح، ويلهب حماسهم فكر دعويّ إبداعي، ورؤية فيّاضة بالوضوح، وحدّة في البصر والبصيرة...

أخذوا كتاب الله بقوة، وضَمّوه إلى صدورهم وكأنه عليهم يتنزَّل، وإياهم يخاطب.. يحرصون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أيّ إنسان في أيّ مكان من العالم، حتّى لو خاضوا إليه أشدّ البحار نأيًا واستيحاشًا، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو اعتلوا إليه أطباق السماء...

معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدْرسونه ويدرِّسونه، وقلَم يُعَلِّمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشفون عن روح مشرق، وقلب وَضَّاء، وفكر خصب، لك أنْ تتساءل: أهم أَنْداء سماوية منهلَّة على عطش الأرض، وجَدب الحياة؛ أم هم جنس إنساني جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض؛ أم قذفتْ بهم أمواج الغيب على ضفاف الدنيا لكي يشاركوا في إصلاحها قبل أن تطيش وينقلب عالِيها سافلها..؟!

أما البؤساء المثقلون بالآلام والدموع والدماء، فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أذرُع الضراعة، ومعبرين عن شوقهم للقْياهم، ومنتظرين يدهم الآسية، وروحهم المواسية، وقلبهم المعَزِّي، ونداهم الهابط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناشف. إنهم طاقة إيمانية كبرى

أحسبها لو سلّطت على جبل لجعلَتْه دكًّا ولخرَّ صَعِقًا.

إنهم إبداعيون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرون على تجديد فكرهم الدعويّ بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائمًا السؤال الملحّ: هل من المحتمل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعاة منذ قرنَين من الزمن، فإننا ما نزال نعاني من السطحية والضبابية في الفهم والعمل؟! وهل من المحتمل أننا قد أخطأنا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على أنماط تقليدية واحدة ولم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إنَّ ذلك قد يكون محتملاً.

وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض -كُلِّ الأرض- لا يَصُدُّهم شيءٌ، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية"، وينطلقون وراء أشدّ تخوم النفس ظلمةً، وأكثرها رعبًا واستعصاءً، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـ"أنا" ليصالحوا بينها، وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى.

إنّه الإصلاح العقلي والروحي الذي ينشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الوقت نفسه يبشّرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" -إذا صَحَّ التعبير- مع جِدَّة التجربة، وشدّة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتُشعره بقدسية الحياة من حيث كونها مرآة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إعجازيتها وكونها آية من آيات الخلق والإيجاد.

والداعية من هؤلاء الفتية سهل هيّن ليّن، لا يبني حول نفسه جدارًا

عقليًّا أو نفسيًّا، ولا يحيط نفسه بهالة فخمة لا يستطيع الآخرون أن ينفذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم لقبول الآخرين والاستماع لآرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحميمية...

وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله.

هتاف الأرواح

مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان،
الآتين من كل مكان،
إلى أرض "داغستان"،
ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان،
ويُعلوا منارات الهدى والإيمان.

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات الأسحار، لسمعتم هتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة[٤٧] وهم ينادونكم قائلين:

انتظَرْناكم طويلا.. سألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السماء: أين فِتيان الإيمان؟ متى يقدم حمَلة القرآن؟ الشوق إليكم أضنانا.. والحنين للقْياكم عذبنا .. وها أنتم اليوم هنا.. فلأرواحنا أن تسعد، ولوَحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب الإيمان، والممحل من أشقّاء الروح والوجدان.

لا نقول لكم أحْرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكنا نقول: أحرقوا وجودكم كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم انثروا حبّات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها - إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها، لأنها صارت جزءًا من

(٤٧) المقصود "مدينة درنند" وهي إحدى مدن داغستان التي يفخر أبناؤها بأن مدينتهم تضم رفات أربعين صحابيا كانوا قد استشهدوا خلال الفتح الإسلامي لهذه البلاد سنة ٣٢ هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وجودكم، وقطعة عزيزة من كيانكم.

تتساءلون: ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبَتكم للمجيء إلى هنا؟ ونحن نقول لكم: إنها قبَس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد. وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألاّ تدَعوا هذه الذبالة تخفت وتنطفئ. انْفخوا فيها من أرواحكم، ألقموها قلوبكم، وأطعموها عقولكم، لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

جئتم إلى هنا مدفوعين بقوّة قدَرية لا تقاوَم، فأنتم مبعوثو القدَر وسفراؤه إلى هذه البلاد؛ لقد اجتزْتم بوّابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم بنهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد يوشك أن يصدق. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا... فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف، ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم.. فمن أدام الطرق فُتح له ولو بعد حين.

لا تقولوا: ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنّى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنّى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟

ونحن نقول لكم: إنْ عزّ المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون، وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون؛ ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي

إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تُعلّموا البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتُعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أيّ خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء؟! وأيّ حلم ورْدي يُغرقون أنفسهم فيه؟! وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟!

ونحن نقول لكم -يا أبناءنا-: ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم، وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه. وجودنا هنا، بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا، والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

أحبّوا "داغستان" بكل حبة من قلوبكم، ولْيكن همكم بها فوق كل همّ، ومحبّتها فوق كل محبة. فإذا أحببتموها سهُل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقّات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنّيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها. وأنتم كذلك -يا أبناءنا الأعزاء- دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغنّي "داغستان" أعذب الألحان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم، وهي ماسة

"القفْقاس" المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عمن يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبّها وهداياهم إليها...

وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدّمونه إليها وتُحْبُونها به..؟

إيحاءات داغستانية:

سلامًا ياليل "دَرْبَنْد"

سلامًا ياليل "دربند"..! سُقيتَ الرَّوح والرَّيحان.. ورويتَ الودَّ والتَّحنان.. يا ظلَّ الكون على أَكْبُدِنا الحَرَّى.. ويا فَيْءَ الزمن على أفئدتنا العطشى.. طال دربنا.. كلَّتْ أقدامنا.. استوحشت أرواحنا وآدتْ قلوبنا حتّى الْتقيناك، فإذا بحادي الركب يهتف بنا: هنا نَحُطُّ رِحَالَ العشق، ونَنْصُب خيام الهوى.. تحت جنح هذا الليل المضمخ بأريج الصحاب[٤٨]، والمعطّر بِمِسْكِ دمائهم، والنّديّ بندى أرواحهم، والمترع بنور إيمانهم..! ناغِنَا.. سامِرْ قلوبنا.. تعطّفْ علينا.. آنِسْ غُرْبَتَنَا.. دَعنا نستظلُّ بظلك.. ونتفيأ بَرْدَ فيئك.. تدّفقْ حنانًا علينا.. تساكبْ لطفًا فوقنا.. تَوَاجَدْ عشقًا نحونا.. نحن أحفاد أولئك الراقدين تحت سمائك، الناشرين الطّيبَ في أنحائك..!

يا ليل "دَرْبَند" لا تخش ظمأً بعد اليوم.. فبدُموع الوَجْد مِنَّا سنسقي صحاراك الظامئات، ونروي زهراتِك المصوحات.. وبأنين التائبين النادمين منا ستُظلّك سحائب الرحمة، وتتنزل عليك لطائف الودّ.. وبهتاف المحبين المحترقين بحبهم ستتفتح أبواب السماء، وتهبط عليك الرحمات، وتغشاك السكينة.. أبدًا لن تجفُّ مِنَّا العبرات.. لله نحزن.. وله نسكب الدمع.. وإليه نجأر بالدعاء.. وعلى أعتابه نمرّغ الوجوه.. ويذوب مِنَّا الوجود.. وعلى "باب الأبواب" نرابط نحمي "كلمة الله" من الضياع،

[٤٨] هم شهداء الصحابة الأربعين الراقدين فوق رِوابي "دربَند / داغستان".

ونصونها بالمهج والأرواح..!

يا "باب الأبواب"![٤٩] ما أكثر ما اصطرعت عليك شعوب، والْتحمت من أجلك أقوام، وسالت على بابك دماء.. والتقت من خلالك أديانٌ وحضارات.. كلُّ شيء فيك تاريخ ناطق، أو إشارات إلى تاريخ.. التراب.. الأحجار.. الصخور.. القبور.. القلاع.. الحصون.. البحر.. الجبل.. الأرض.. السماء.. بل الإنسان نفسه، إنه تاريخ متحرك من مجموعة أخلاط عجيبة من الأقوام والشعوب واللغات والأوطان انصهرت كلّها في أتون الزمن فَتَخَلّقَ منها إنسان جديد هو خلاصة مصطفاة من هذه الأخلاط والأمشاج!

على أعتاب "باب الأبواب" تُسْكَبُ العبرات.. وتذوب النفس حسرات.. ويتمزق القلب حزنًا وأسًى.. على هذا الباب صُلِبَ الإيمان مرةً، ولكنه لم يَمُتْ.. تناوشته سهام الكفر فأثخنه الجراحُ، ولكنه لم يمتْ.. جرّعوهُ الصّابَ والعَلقَمَ فتهاوى مُدْنفًا، ولكنه لم يمت.. حاصروه.. حرَّقوا كتابه.. سجروا به تنانير حقدهم، لكنه ظلَّ حيًّا في القلوب ولم يمت.. لأنه حياة أقوى من كل حياة.. وحياة فوق كل حياة..!

يا ابن "دربند".! في أَغوار روحك يسكن تاريخ أرضك.. روحهُ المعذَّبَةُ مسكوبةٌ في روحك.. إنه يغورُ بكل آلامه في أعماقك.. يخصب حياتك، لكنه يلونها بالأسى.. يشكل عقلك، لكنه يثقله بالهمّ.. لا يَمُدُّكَ إلاَّ بمرارات تجاربه، ولا يمنحك إلاّ دموية حكمته.! تحرَّرْ من صغوطه عليك.. انْسلخْ عنه.. عِشْ خارجه.. ارتفع فوقه.. اُسْمُ عليه.. اسْمُ وارْقَ

[٤٩] تسمي كتب التراث مدينة "دَربند" بـ " باب الأبواب" وربما لأهميتها وكونها الباب الذي يدلف منه القادمون من أوربا إلى آسيا الوسطى وبالعكس (انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي).

حتى تلامس سماواتِ القرآن.. هناك الْتمس لك تاريخًا لا يُبْليهِ الزمنُ.. ولا يُعَتّقُه القِدَمُ.. ولا يلتهمه العدم.. هو للروح بهجة لا تنقضي.. وللقلب عيدٌ لا يحولُ ولا يزول..!

إيحاءات داغستانية:

على بوّابة "داغستان"

١

اِفتحي يا سيدة "القفقاس"..! يا أليفة الدُّجى ورفيقة الليالي الطوال.. اِفتحي يا معصوبة العينين.. يا مكبّلة الروح.. يا مقيدة الفكر..! يا لَعَيْنَيْكِ الظامئتين إلى ضياء الفجر ما أشدَّ حلْكَةَ ظلامهما.. ويا لرُوحِكِ المتطلعة إلى الانعتاق ما أثقل ما تَرْسِفُ فيه من قيود.. ويا لَفِكْرِكِ الوَثّاب ما أقسى ما يعاني من الأباطيل!..

اِفتحي..! من مسافات الشوق البعيدة أتيناكِ.. من آفاق الحنين القُرآني قدِمنا إليك.. النور ملأ أرواحنا.. والمحبّة ملأ قلوبنا.. ونداء الإيمان ملأ أصواتنا..

اِفتحي.. هذه سواعدنا تُوالِي الطَّرْق على بوّابتكِ.. وأكّفُنا تَدُقُّ بقوةٍ فوقَ جدران ليلكِ!..

اِفتحي.. فعَلى بوّابتكِ -لو تعلمين- قرآن وإيمان وفتْيان شجعان، لو وقف هؤلاء الثلاثة على سُور الصين لجعلوه دَكًّا..!

٢

اِفتحي يا دُرَّةُ القفقاس.. يا جوهرة التاريخ الدفينة في ذاكرة الإيمان.. لا ترتابى.. ما جئنا لِنَرْزَأَكِ بمالٍ أو ولد.. ما أتينا لنأخذ، بل لِنعطي.. نحن الرِيُّ لظمأ قلبكِ، والقُوتُ لمجاعاتِ روحكِ.. ونحن الفِدَاءُ "لكلمة الإيمان" إذا تَحَرَّكَتْ بها شفتاكِ.. قُوليها، أم تُرَى أَنَّكِ نسيتِيها..؟! اِكْسرى

ما وُضِعَ على فمكِ من أقفال.. اهتفي بها مِلأَ فَمِكِ.. فلو هتفتِ بها عادت أرضُكِ ربيعًا، وسماؤكِ عيونًا منهلةً بالبِشْرِ والنور والفرح الإلهي، ليغسل كُلَّ ما عانَتْ منه روحكِ من أوجاع، ويُضَمِّدُ كلّ ما شكا منه قلبكِ من جراحات..!

٣

مُدَّ يدَكَ يا بطل "داغستان"..! ضُمُّها إلى أيدينا.. دُقَّ معنا الأبواب.. لِتُعانِقْ روحُكَ أرواحنا.. لتَحْفِزْ هِمَّتُكَ هِمَمَنا.. ولْتُلْهِب إرادَتُكَ الجبارة إراداتنا.. إننا نسمع صوتك القوى يَتَرَدَّدُ صداه في فضاءاتِ أرواحنا.. إنه يحدونا في مسيرتنا الإيمانية.. يا شيخنا الجليل.. نادها.. قل لها مَن نحن وماذا نريد..؟ ها أنت ذا تخاطبها.. إننا نسمعكَ تقول: أَنا "الشيخ شامل"، أُناديك فاستمعى إليَّ.. اِفتحي لهم كُلَّ الأبواب.. إنني أباركهم من وراء الغيب.. إنهم فتية الإيمان الذى انشق عنهم كهف النور.. على عين القدر صُنِعُوا.. وفي كنفه نشأوا.. ضمائرهم تشعّ نورًا.. أرواحهم تتألق صفاءً ونقاءً.. أرضهم سماء.. وسماؤهم قرآن.. وليلهم مذاب ضراعة ودعاء.. ونهارهم جدّ وعلم وعمل.. ضمّيهم إلى أحضانِكِ، فهم نِعْمَ الأبناء لِنِعْمَ الأمهات..!

٤

أنتم أيها الغرباء الحاملون غربتكم فوق كواهلكم..! اغتربوا... ففي غربتكم سرُّ قوتكم... تفرَّدوا... توحدوا... فتفرّدكم سؤال ملحّ يوخز أفهام الآخرين.. انْمازوا فتميزكم لغز يحفز العقول لكي تسبر غوره وتفهم سره..

أيها الحاملون غربة الإسلام إلى أرض "داغستان"..! طوبى لكم،

وبشراكم قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطُوبَى للغُرباء..!»[٥٠]. فطوبى لكم هذه الغربة المحببة.. إنها آية إيمانكم في هذا العصر.. وعلامة الصواب بين أخطاء العالم وخطاياه.. ولكن انتبهوا.. فما لم تكن قلوبكم هي التي تتكلم من خلال شفاهكم، فلن تستمع إليكم "داغستان".. وما لم تهبط أرواحكم على أطراف ألسنتكم ساعةَ تخاطبونها، فلن تصغي إليكم.. لقد أصغت كثيرًا حتى ملّتْ، واستمعت لآلاف الأصوات وهي تزف إليها الأمل في نعيم الحياة، ورفاه العيش، ثم خرجتْ من كل هذا الضجيج المصم وهي أكثر هزالاً، وأشد جوعًا، وأعظم بؤسًا.. فكفرتْ بكل الأصوات إلاّ صوتًا واحدًا ما زالت تتُوق إلى سماعه، ألا وهو صوت الله تعالى.. فكونوا جديرين بحمله إليها وتبليغه إياها..!

٥

نعلم أنكِ بكيتِ فُقْدانِ الهوية.. ونعلم أنهم سلَبوكِ إياها.. ونعلم أيَّ عذاب مخيف تَحَمَّلْتِ حين لم تعودي تعرفين مَن أنتِ ومَن تكونين..؟! ونعلم ما قاسيتِ من الآم الانقسام بين أن تكوني "داغستان" الإيمان والإسلام، وبين ألاَّ تكوني.. ونعلم غزارة الدموع التي سفحتِها فوق ليالي الحيرة الطوال.. ونعلم ما اجْتَرَحَتْ أحزانُكِ في صحراء روحِكِ من حرقةٍ وعذابٍ وجَوَى..! نعلم كل هذا.. ونأسى لكل هذا.. ومِن أجله أتينا.. من أجل الهوية السليبة قَدِمْنا.. من أجل أن تكوني "داغستان" الإسلام والإيمان نحن هنا.. ومن أجل أن تلتقي هويتَكِ السليبةَ وتتوحدي مع شَطْرِكِ المَقْصِيّ جئنا إليكِ، وحططنا رحالنا على بابكِ، وأَقمنا خيام

[٥٠] مسلم، كتاب الإيمان ٢٠٨؛ الترمذي، كتاب الإيمان ٢٥٥٣.

أشواقنا في رحابكِ.. فأَومئي إلينا.. أشيري نحونا.. تجِدينا بين يديكِ.. فلْذاتٍ مضيئاتٍ من كبد الإسلام، وجذواتٍ متوهجاتٍ من أقباس الإيمان والقرآن..

يا أمّنا الحبيبة التي عشقتْها أرواحُنا، لا تبعدينا عنكِ..! خذينا إليك، وامنحينا حبَّكِ.. وضُمّي إلينا يَدَكِ لنجدد معًا ما اندرس من معالم الإيمان.. ونعيد ما غاب من آيات الهدى والفرقان، في رحابكِ وفوق أرْضكِ..!

٦

أينما مضيتُ -في شعاب هذه المدينة- أسمع وقع خطاهم، كيفما أصغيت أسمع نبضات قلوبهم.. وإذا ما تنفستُ أتنفّس عطر أرواحهم.. وإذا ما هبّت الريح حملتْ إليّ أصداء أصواتهم، وصليل سيوفهم، وصهيل خيولهم..! أولئك الحُفاة العُراة الجائعون الظامؤون الذين اتعبوا التاريخ، فظلَّ يركض وراءهم، فلا هم يتوقفون ولا هو يلحق بهم.. إنهم هنا فوق روابي هذه المدينة يرقدون.. جائعون حقًّا، ولكنهم كانوا للحق أشدَّ جوعًا وأعظم ظمأً.. حُفاة عُراة صدقًا، ولكنهم أبدًا لم يتعلوا أبشار الشعوب[٥١] ولم يتسربلوا دماء البشر.. أرْضيّون طِينيون، ولكن صحبتهم لنبيّهم ﷺ جعلت أرضيّتهم سماءً.. وطينيتهم عنصرًا نورانيًّا مشعًّا... وحولت تمراتٍ في كفِّ واحد منهم إلى جمرات محرقات، فيقذف بها ويقذف بنفسه إلى رحى الحرب لينال الجنة التي اشتاق إليها واشتاقت إليه..! أتدرون ماذا كانت تمثل هذه التّمرات في كف ذلك الصحابي الجليل..؟ هي دنياه.. هي ماله.. هي شهوته ولذّته.. هي دِرهمه ودِيناره.. فلمّا ألقاها من يده،

(٥١) البشر: جلد الإنسان، ومنها قوله تعالى في النار: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾(المدّثّر:٢٩)، والعبارة كناية عن عدم استعباد الناس وامتهان كرامتهم.

ألقى بكل ذلك وراء ظهره، فصار أهلاً للشهادة والجنة..!

أيها الراقدون فوق روابي هذه المدينة..! يا صحابة رسول الله ﷺ.. أعِيرونا قوّة أرواحكم.. اِمْنحونا صلابة سواعدكم.. ابتعثوا فينا هممكم.. اِقدحوا أزندة إراداتنا.. علِّمونا كيف نقتحم الأهوال، ونصارع الخطوب، ونهزم المستحيل.. أمدّونا بحِكْمتكم.. أرشدونا.. زهّدونا.. لكي نُلقي ما بأكفّنا من رموز الدنيا إلى هاوية الفناء.. خذوا بأيدينا.. امنحونا بَركاتكم، لكي نؤدّي رسالة الإيمان، ونفوز برضى الرحمن..!

إيحاءات داغستانية:

خبز الخلود

لو أعطيتني الدنيا كلَّها.. لو توجتني ملِكًا عليها.. لو ملَّكتني زمام أمرها.. لو طويتها ووضعتها في جيبي.. لو حملتها على طبق وقدّمتها على مائدة روحي.. لو اعتصرتها في كأس وجعلتني أتحسَّاها حتى الثُّمالة... فإنك -في الحقيقة- لم تفعل شيئا، ولم تعطني سوى قبضة ريح، وحفنة تراب، لا تلبث أن يلفها الزوال ويطويها العدم؛ بينما يظلُّ لهيب الشوق في أرجاء نفسي مستعرًا، وصراخ الجوع إلى خبز الخلود يهزّ أسماع الفضاء، ونازع الفطرة إلى البقاء والأبد يهيج في الروح نواحًا كنواح الثكالى.

أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، صرخ بوجه الكون: ﴿لاَ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ﴾(الأنعام:٧٦).. امْض عني.. تَنَحَّ عن طريقي.. لا أريدك.. ليحترق العالم كله.. ليتحول إلى رماد.. ليطوه الفناء.. فليس هو من همّي، وليس هو مطلبي.. مطلبي "مكوّن الكون ﷻ" .. مَحبتي لـ"من لا يزول ﷻ".. قلقي بـ"مَنْ لا يفنى ولا يموت ﷻ".. عبوديتي لـ"أبديّ البقاء ﷻ". يقذف به عليه السلام النمرود بالمنجنيق، يدركه جبريل عليه السلام وهو يهوي نحو النار المتأجّجة فيقول له: "ألَك حاجة؟" فيردّ أبو الأنبياء: "أمّا إليك، فلا!".. يقول جبريل: "سَلْهُ ﷻ"، أي سل الله حاجتك. يقول إبراهيم عليه السلام: «عليم بحالي، غَنِيٌّ عن سُؤالي»[٥٢]. وفي الحديث: «لو قال: نعم لي إليك حاجة، لَمحي اسمه من ديوان الخلّة». النورسي يلخّص لنا هذا الموقف الإبراهيميّ بعبارتين

[٥٢] الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ٥ /٤٠٠.

فيقول: "تعلقْ أيها المسلم بالأبدي تتأبّدْ.. وصلْ أسبابك بأسباب الخلود تخلد".

في المعراج يقول الله تعالى عن رسوله الكريم ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم:١٧).. رغم عظم ما شاهده ﷺ من مظاهر الجلال والجمال في أرجاء الكون، فقلبه الشريف ظل متعلقًا بصاحب الجمال الأقدس والجلال الأعظم، ولم يلتفت طرفةَ عين إلى الفانيات الكونية، وبهذا حاز مرتبة المحبوبية والأقربية التي لم يحزها نبيٌّ ولا رسولٌ قبله.

الشوق المضطرم في قلبك إلى معالي الأمور هو دليل حياتك... مَنْ يخلُ قلبه من الشوق يَمُتْ وإن بدا للناظرين حيًّا.. مَنْ لم يتحول الإيمان في قلبه إلى طاقة من الشوق إلى الله والمحبّة لرسوله، لا خير في إيمانه لأنه لا يأتي بخير.. لتكن نفوسكم توّاقةً إلى الخلود، وتوّاقةً إلى الجنة.. لترتفع ببصرها عن الفانيات الهالكات، ولتستشرف ببصيرتها على الباقيات الخالدات..

مجدد القرن الثاني الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول بعد أن لم يبق فوق الخلافة والحكم منزلة يتوق إليها: "إنّ لي نفسًا توّاقة، ما تاقت إلى شيء ونالته إلا وتاقت إلى ما هو أعلا منه... وهي اليوم شديدة التوق إلى الجنة"[٥٣].

ويتوفّاه الله بعد هذا الكلام بأيّام.

لأجل الرسالة العظيمة التي يحملها المؤمن كان أفضل مخلوقات الله، وأنفس كائناته، وأحبهم إلى موجوداته... ففي الأثر: «إن الجبل ليقول للجبل: سعدتُ اليوم بخُطا مؤمن مشى فوق ظهري وسار بين شعابي..

[٥٣] فيض القدير، للمناوي، ٣ /١٦٠.

وإن الأرض لتقول للأرض: شَرُفْتُ اليوم بسجدة مؤمن فوق ترابي.. وإن الشجرة لتقول ليت الذي يستظل بظلي ويأكل من ثمري لا يكون إلاَّ مؤمنًا.. وتقول حبّة القمح: ليتني لا أغذو إلاّ جسم مؤمن.. وتقول قطرة الماء: ليتني لا أروي إلاّ عروق مؤمن».[٥٤]

في غسق هذه البلاد سطعتْ شمسُ إيمانكم.. فهبّوا امْلأوا الأقداح الظامئات من أنوار قلوبكم.. أعطوا ولا تأخذوا.. جودوا ولا تَبخلوا.. أرسلوا ولا تمسكوا.. تكاثروا، تزاحموا عندما يفزع الإيمان.. وانصرفوا راشدين عن مواطن الأجرة والجزاء.. هكذا كان أجدادكم "يكثرون عند الفزع، ويقلّون عند الطمع".. كونوا عطاءً خالصًا لتحيوا.. الشجرة تموت حين تكفّ عن العطاء.. إيمانكم يضعف ويهزل إذا هو لم يعط من ذات نفسه...

لمن أنفاس الإيمان في صدوركم..؟ أليست هي هدايا الرحمن إليكم..؟ أليس لكل شيء زكاة..؟! فلْتكن زكاة إيمانكم مزيدًا من العطاء لفقراء الإيمان.. لتكن ذواتكم النورانية كنزًا مبذولاً لكل المظلمين في كل مكان..

إن الأرض لتهتزّ طربًا لمس أقدامكم، وإن السماء لتندى ابتهاجًا بأصوات دعائكم.. والجنة نفسها ترنو إليكم رنو الوامق المشتاق من فوق سبع سماوات.. وملائكة الرحمن تستغفر لكم ما دمْتم في طاعة الله وفي نصرة دينه..

إياكم والصبوة إلى شهوات الدنيا وملذاتها، فإنها تطفئ جذوة الروح.. وتملأ القلب ظلامًا.. والبصيرةَ عمًى، فتحرمون الرؤية إلى حقيقة رسالتكم

[٥٤] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري، ١٠ /٢٦٧.

ومغزى وجودكم..

الحوار الآتي جرى يوما ما بين أستاذنا "النُّورْسي" وبين رفيقه وتلميذه "الملاّ رسول"... قال ملا رسول:

- على رِسْلِكَ يا أستاذي.. هوّن عليك.. أرحْ نفسك قليلاً.. فنحن كذلك نخاف الله ونخشاه.. أما أنت فتكاد مرارتك تنشقّ من خشية الله.. انْظر إلى إصبع قدمك كيف تقرَّح بسبب جلوسك الدائم وكأنك في صلاة لا تنتهي..!

يجيب الأستاذ قائلاً:

- يا ملاّ رسول..! لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبدية خالدة بهذا العمر القصير، والدنيا القصيرة.. أأعيش هنا كيفما أشاء وكما تهوى نفسي، وأنا أسعى إلى الجنة وأطلبها..؟! لا أجرؤ على العيش كما أهوى أبدًا..!

هؤلاء المجانين

يبقى الفكر الرفيع حبيسًا في ذهن صاحبه لا يثير الانتباه، ولا يجلب الأنظار ما لم يتحول إلى لهب ترتفع ألسنته إلى عنان السماء، مخترقةً سود الليالي ومشعلةً النار في هشيم الظلمات. وهنا ينتبه إليه الناس، ويُقبلون عليه، ويقبسون منه، ويأخذون عنه، ويسضيئون به، ويتدافعون لحمل تبعاته، ونشر أفكاره، ويمتلئون حماسة بالانتصار له والدفاع عنه والعيش من أجله.

فالعيش في هذا الفكر الملتهب، والعيش من أجله ولأجله، يحتاج كذلك إلى رجال من ذوي الإرادات الملتهبة، والوجدانات المشتعلة، والنفوس الفوَّارة، والعقول الوثَّابة، والإدراكات العالية، والفهوم الفطنة الذين إذا مشوا تواثبوا، يسابقون الزمن، ويختصرون المسافات، لا يتْعبون ولا يَمَلُّون، ولا يركنون لراحةٍ، ولا ينعمون بدفء فراش أو ملازمة زوجة وأولاد... شعارهم "خَلُّوا سبيلنا، ودعونا نضرب في أرض الله"... يكسرون العادات، ويخترقون المألوفات ويلوون رقاب الأيام إلى حيث يريدون.

إن نار الوجد الإلهي تحرق أفئدتهم وتأكل أكبادهم، فيَلُوبُون من لواعج ما يجدون، فلا يستقر بهم مقام، ولا يأنسون بحال. إنهم حراك يتدفق، وعمل دؤوب تنتهي الأزمان ولا ينتهي لهم في كل يوم شأن... يأخذون بأيدي المنهزمين، ويجبرون كسر المنكسرين، ويُنهضون المنسحقين، ويزرعون الأمل في اليائسين، ويُطلِعُونَ شمس الهدى في ظلماء التائهين...

إنهم جنود القدَر وأنصاره، يستخدمهم في رسم خطاه، وإنفاذ أمره،

وتحقيق غاياته، وإشعال العزائم، وإتيان الخوارق، وتخطي العوائق، والجري وراء الآتي من الزمن، والقادم من المستقبل... لا تستنفدهم آلام اليوم، ولا توهن عزائمهم فواجع الحاضر... فلهم من الإيمان واليقين ما يجعلهم يمشون فوق الآلام، ويتخطون جسور الأوجاع إلى الهدف المنشود، والغاية المبتغاة... إنهم يشكلون ضمير العالم كما ينبغي أن يكون، وعقل الخليقة التي تريد الحصانة من الجنون... إنهم درجات متحركة في سلم الوجود لمن يريد الصعود، وشعل محبّة توقد مجامر الخلود في الإنسان الموعود...

ولعل هؤلاء الذين استعرضنا بعض ملامحهم في السطور السالفة هم "المجانين" الذين عناهم الأستاذ "فتح الله كولن" متضرعًا إلى الله تعالى أن يمنحه قلة منهم[٥٥] يجدون في بطولة السموّ واحدًا من مطامحهم العالية، ثم لا يكفُّون عن ملاحقة قلوبهم الفتية المتفلتة من أقفاصها نحو ذرى العظمة الإيمانية من خلال الفكر الذي يمتثلون ويجهدون لجعله تاجًا يزين هامة البشرية التي تآكلت تيجانها منذ زمن بعيد.

إن شعور أجيالنا الطالعة بالانهزام العقلي يشكل اليوم واحدًا من إحباطاتنا التي تشلُّ قدراتنا العقلية، وتعيقها عن النهوض من جديد لتجديد نفسها وتنشيط قواها... أما روحنا فقد أصابه المرض، وركبته

---

(٥٥) يقول الأستاذ فتح الله كولن: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرّون وإليها لا يلتفتون... أريد حفنة ممّن نُسبوا إلى خفّة العقل لشدة حرْصهم على دينهم، وتعلّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدَحهم سيد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكرون بملذّات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا ربّ، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطْلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب...!" (انظر: مجلة حراء، العدد:١٤ / يناير ٢٠٠٩).

العلل، وأوهنته الهبوطات والسفليات والعمى عن "الماورائيات"... ولقد أفرغتنا الأيام من جوهر وجودنا الاستثنائي بين الوجود... إننا ندرك اليوم كم كان شقاؤنا مريعًا عندما عشنا وكأننا بلا ربّ يربّينا، وبلا إله يراعينا، فغدت حياتنا تعبًا مُملاً ومتاهات محيرة.

إن خمود الاستعلاء الإنساني في الإنسان المؤمن، وانسحاق روحه تحت أثقال المشاغل الدنيوية، وتشتت ذاته بين مختلف الاتجاهات، هو واحد من أسباب الضعف الروحي والفكري الذي نعاني منه جميعًا، حتى غدا التعبير عن ذواتنا فنّيًا فيه من الضحالة والسطحية ما جعلنا نبدو أمام الآخرين وكأنّنا عراة من أية أعماق فكرية أو روحية، وغدونا أشدّ ما نكون افتقارًا إلى دروس في الروحانية العالية، والفكر الأعماقي الذي يتحفنا به بين آونة وأخرى الأستاذ "فتح الله كولن" في كتبه ومقالاته وأحاديثه.

لقد بلغ بنا الهزال الروحي والفكري إلى الحد الذي جعل الآخرين ينظرون إلينا وكأننا قوارير عتيقة سرعان ما تتفتت في الأيدي عند أخفّ الضغوط.

فأعمال "كولن" الفكرية إنما هي مناخات عقلية ووجدانية تساعدنا على أن نتنفس حتى أعماق رئاتنا صفاء الأفكار ونقاءها وعظمتها، فتتحول بهذا الفكر إلى كيانات متماسكة من الإيمان والمعرفة صعبة الاختراق والتفتت.

إن مما يجلب الانتباه في هذا الفكر الملتهب عند "كولن"، أنّ أفكاره إنما هي شرح وتفسير لأعماله، وأعمالُه إنما هي أفكار مطبقة أو هي في سبيلها إلى التطبيق.

ومما يثير الانتباه في هذا الفكر كذلك قدرته الفذّة على مغالبة اليأس وابتعاث الرجاء من مكامنه حيث يضيع كل رجاء... إنه فكر تجددي

ولكنه غير استجدائي، اكتفائي غير افتقاري، تراثي وحداثي في الوقت نفسه، ماضوي ومستقبلي، محلي وعالمي، كوني السعة، إنساني النظر، عولمي الامتداد، يعتمد الحوار، ويتقبل الآخر، ويدعو إلى السلام.

المجددون الشباب

"كان عمر بن الخطاب ﷺ
إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث
فاستشارهم لحدة عقولهم"
(يوسف بن الماجشون)

إن الشبيبة الواعية المستنيرة أشبه ما تكون بشعلة دائمة التوقد في دم الشعوب والأمم، تلتهم عَفَنَ الزمن المتراكم على جمود العقول وشلل الأرواح. فالهزَّات العنيفة العاصفة بكيانات هذه الشعوب وبسكونية عتاقات أفكارها، إنما هو من فعل هذه الشبيبة الملول إذا ما انطلقت من أقفاصها وحبوسها، فلا يَحُول عندئذ بينها وبين ما تريد من تغيير وتجديدِ حدود أو سدود.

فقلوب هؤلاء الشباب تزخر بمعين ثر من انبجاسات الحياة وتفجرات الأفكار. فأفكارهم تتعاقب في رؤوسهم محدثة زخمًا هائلاً يكاد يبلغ حدّ الانفجار، فما لم تتحول هذه الأفكار إلى شواهد حياتية شاخصة ومرجعيات فكرية فاعلة، وقعوا في الإحباط وأصابتهم عدوى الشلل العقلي والسهوم المتبلد.

فمن أجل ذلك، هم في سعي دؤوب وبحثٍ جادٍ للوصول إلى قلب الأمة، ليودعوا هذا القلب كلَّ ما في أرواحهم من أسرار مقدّسة، وبكل ما في عقولهم من أفكار عالية، هذه الأفكار التي لم تجد موضعًا تتنزّل عليه، أسمى من رؤوس هؤلاء الشباب المملوءة بكل ما يمكن للبشرية أن تقدِّس من فكر وتجلّ من عقل.

فالشباب من أصحاب الرسالات الكبرى في العالم، يملكون من القدرات الإدراكية أكثر بكثير مما تجمّد عليه المجتمع من إدراكات، فهم بعمق بواعثهم الوجدانية والروحية، يشكلون العقل الجوهري المتميز والمختلف عن جسم المجتمع وعقله ووجدانه.

إن هؤلاء الشباب يمثّلون "الإنسان الجديد"[٥٦] الذي بدأ بالاستيقاظ، وهو يمسح اليوم عن عينيه بقايا ليل طويل كان قد تغشّاه منذ زمن بعيد. وهذا الإنسان الجديد، ما برح حتى طرح على عقل المجتمع جملة من الأسئلة، حاول أن يحاور بها هذا العقل ويحفز قواه الفكرية والروحية للإجابة عليها. وها هو اليوم يتلمس طريقه بين عشرات الطرق لكي ينهض بمسؤولية الجواب، ويصل في خاتمة المطاف إلى جوهر كل الأسئلة.

وهذا الجوهر يكمن في السؤال الآتي: كيف يمكننا أن نَحُول بين الأرض وبين مَن يريد تدنيسها؟ وبين العالم وبين مَن يريد هلاكه؟ وكيف نمدُّ البشرية بالقوة التي تستطيع أن تحيا بها مبرأةً من الأدناس؟ وبأن نجعلها تنشد الفضيلة في كل ما تأتيه من فعل أو قول أو فكر؟

فالبشرية اليوم تعاني من رعب خرافي مصحوبًا باختلاج معنوي وجسدي، وهي في حالة اضطراب وحشي بلغ أَوجَه وجاوز حدَّه.. إنها تحترق بتوحش فكرها وهمجية روحها.. إنها تعادي نفسها، وتنحر روحها، وتأكل جسدها، وتشرب دمها، حتى إن الأرض مادت من تحتها واضطربتْ، وثقل عليها الإنسان بأوزاره وآثامه وسفكه للدماء وقتله للأبرياء، وكأنه بهذا الحضيض من السلوك، يريد أن يعلن مجافاته للعقول القوية الزاخرة بالمعاني الجديدة والأفكار البكر، وبهذا يعادي الحقيقة ويتحاشاها ولا

[٥٦] انظر: مقال "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن (مجلة حراء، العدد: ١١ / أبريل ٢٠٠٨).

يرغب بالتقائها، وحتى عندما يضطر إلى مراجعة رصيده الفكري، لا يفعل ذلك إلا لكونه يرغب بالنجاة من أضرار سلوكه المجافي للإنسانية، لا من السلوك نفسه الذي أودى به إلى هذا الحضيض التعيس.

فما لم ينتشل هذا الإنسان الوحشيُّ السلوكِ روحَه من سجنها السحيق، ويفتح أبواب عقله لمن يملك المداخل لكافة العقول، فلن يستطيع العلو بمداركه إلى آفاق الحقيقة التي تسعى العقول كلها للارتفاع إليها.

إن الكثير من "العتاقة" تفوح رائحة عتاقتها بين ما يسمّونه بصفوة المجتمعات، هذه الصفوة التي لم تتعلم -مع الأسف الشديد- كيف تعيش بالجانب الأعلى من وجودها الإنساني، ورضيت بالأدنى من هذا الوجود، فوقعت في خلل معيب؛ حيث اضطربت موازين هذا الوجود، فلم تتكامل وتتناغم عقولها ومشاعرها وغرائزها الجسدية واستشرافاتها الروحية، فعانت من جرّاء ذلك الخلل الشيءَ الكثير من التعاسات والإخفاقات، مما دفعها إلى الانحدار نحو دركات متدنية من همجيات جسدية وروحية وعقلية، وهي تحسب أنها طليعة المجتمع الساعي إلى الرقي والتقدم.

فالشباب المجددون، في قلق دائم لعزوف البعض عن اللحاق بتفوقهم الروحي والإنساني، وعلى الرغم من معرفتهم بأن الإنسان هو صنو الإنسان في سجاياه وفي طبيعة تكوينه الروحي والبايولوجي على حد سواء، غير أنهم لا يلومون الآخرين على هذا التقصير بقدر ما يلومون أنفسهم، إذ يعدُّون أنفسهم مذنبين لكونهم لم يكتشفوا بعدُ اللغة الحوارية التي تمكّنهم من الدخول إلى قلوب الآخرين وأرواحهم، وهذه اللغة هي ما يسعى هؤلاء المجدّدون إلى اكتشافها يومًا بعد يوم.

مدارس النور وبناء العقول

لا زال تحديث "عقل المسلم" وحفزِه لاستعادة قواه التفكيرية والاستيعابية لمتطلبات البناء الحضاري الجديد واحدًا من التحديات التي تواجه المفكرين وأصحاب الرأي عندنا.

فالمنظّرون لعملية التحديث هذه قد تتشعب بهم الأفكار، وتذهب بهم المذاهب في شتى الاتجاهات والمجتهدات، غير أن القضية ظلّت تتراوح في حدود "التنظير.. ولم تتجازوه إلى حيز التفعيل والتنفيذ.

ولا أكون مغاليًا إذا قلت: إنّ الأستاذ "فتح الله كولن" هو المنظر الذي اختطَّ لعملية تحديث "عقل المسلم" الوسيلة الأقصر التي يمكن من خلالها تحديث هذا العقل، وذلك بتهيئة الحضانات والبؤر التي تساعده على معرفة ذاته، واستبطان قواه الفكرية، وهذه الحاضنات والبؤر إنما هي المدارس التي كان الأستاذ قد دعا النخبويين من الرأسماليين وأصحاب المال بالإنفاق على إنشائها في مختلف أنحاء العالم، على مستويات عالية، بأبنيتها وكوادرها التعليمية حيث استطاعت أن تكون عامل جذب واستقطاب لأذكى الطلبة وأشدّهم حرصًا على الإفادة والتعلم والتفوّق. ولكي نفهم الخلْفية الفكرية التي دفعَته إلى هذا الفعل الحضاري، علينا أن نعود إلى كتابه القيّم "ونحن نبني حضارتنا". فهذا الكتاب هو واحد من أجل ما وعته الكتابة المعاصرة وانطوت عليه من أسرار الروح والضمير، ومن أنصع الصفحات في تاريخ المعاني العليا التي ترفع صاحبها كواحد من رواد الروح الإنساني الذي لا تقوم الحضارات إلاَّ به.

إنه هرم فكري وروحي يلفت الأنظار إلى أن الانبعاث الحضاري لن

يتمّ إلا بفاعلية روحية تتملّك الشعوب، وتحرك ساكنها، وتبتعث راكدها. إنّ هتافه الطفولي "لبّيك يا رسول الله" ظلّ ساريًا في فكره ومشاعره؛ فكتاباته وأحاديثه وخطبه ومواعظه إنما هي نضوحات عن تلك الهتفة المباركة. ولذلك العهد الذي قطعه على نفسه لرسوله عليه السلام ولنصرة دينه ودعوته وسنته، وقد سعى ويسعى لتوحيد العقول وتثقيفها وبنائها، ثم ربطها برباط الربانية.

فـ "رجل القلب"، هذا المصطلح الذي كثيرًا ما يكرره في كتاباته، هو الذي يريد أنْ يبنيه في هذه المدارس، إلى جانب تلك المفاتيح التي تديرها المدرسة في عقل الطالب وفكره، ليتخرج منها بعد ذلك بروح يشرق عليه جمال القلب، وجلال الفكر، فيكون مبعث دفءٍ فكري وروحي للآخرين.

لقد رأينا من خرّيجي هذه المدارس شبابًا تتأجّج قواهم العقلية في إطار من وَميض روحي يكاد يخطف الأبصار، ويضيء الدياجي الدكناء.

وكم كنتُ محظوظًا عندما صحبني قريب من أقربائي إلى إحدى هذه المدارس التي افتتحت حديثًا في مدينتي، وأتيحت لي الفرصة لكي أزور صالات المدرسة وصفوفها، وأتعرّف عن كثب على أثاثها التي تكاد تضاهي أجمل الأثاث وأرقاها في أحدث مدارس العالم، فقد وجدت في هذه المدرسة من وسائل التعليم وأساليبه وطرقه ما لم أجده في أي مدرسة أخرى، كما أنّ عدد طلاب أي صف لا يزيد عن عشرين طالبًا أو خمسة وعشرين طالبًا.

أما المعلّمون فحرارة وجدانهم تشعرك بوقدة شعور طاهر تتلمس وجدانك، وتحرك مشاعرك... فكل شيء في هذه المدرسة ينبض بالجمال

ويستدعي الجمال.

فمعلّمو هذه المدارس لهم من القدرات التعليمية ما يستطيعون معها أن يجعلوا تلامذتهم يتذوقون رحيق العلم بنشوة المحب العاشق، فإذا بعقولهم تنبض بجمال المعرفة، كما أن نفوسهم تنبض بشعاعات من أرواحهم الصافية... وإنك لتلمس من هؤلاء الطلبة رقة الشعور، ودَمَاثة الخلق، وأدب السلوك، والثقة بالنفس، والتفاؤل، والتطلع إلى المستقبل.. إنهم بصائر نَفَّاذة، وأذهان ثقّابة، وهم مرشّحون ليكونوا في مستقبل الأيام عونًا على تثقيف عقل المسلم وتحديثه والاعتلاء به إلى مصاف أرقى العقول، وأعظم النفوس.

مدارس كونية الآفاق

يتعلم تلامذة مدارس النور المنتشرة في العديد من أقطار العالم، والمعتمدةُ أفكارَ الأستاذ "فتح الله كولن" في التربية والتعليم... يتعلم هؤلاء التلاميذ أولَ ما يتعلمون، أنَّ للكون عقلا، وأنَّ لهذا العقل أفكارًا، وأنه يومض بهذه الأفكار ومضات متتالية، ويبرق بروقًا دائمات، ويومئ إيماءات، ويُشَفِّر شفرات، فتتلقفها العقول البشرية الذكية، وتنكبُّ على حَلِّ رموزها، وفكِّ أسرارها، والتعرُّف على معانيها ومقاصدها، فتتعلم منها، وتأخذ عنها، وتستولد منها الأفكار، وتنشئ العلوم، وتقيم المدنيات والحضارات.

فكل الحضارات التي نشأت فوق هذه الأرض إنما هي نتاج تفاعل جدلي بين عقل الإنسان وعقل الكون، فنبضات هذا العقل تخترق أقطار النفس البشرية، وأغوارها الروحية، وكأنه يدعونا ليطلعنا على صور متتابعة لا ينقطع تتابعها من قوة الله تعالى وعظمته وأسراره في خلقه.

فمن أهم مهام هذه المدارس الفريدة في نوعها، بناء جسور فكرية دائمة بين عقل التلميذ وعقل الكون، من خلال ما يتلقاه من مختلف العلوم ذات الجذور الكونية الطبيعية، وهي تنشئ في التلميذ بصيرة نافذة وعقلا بحثيًّا استقرائيًّا، واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليكون في وسعه فتح أغلاق الخزائن في الكون والطبيعة والإنسان، والولوج إلى أسرار دفائنها، ودخائل تراكيبها، وبواطن أبنيتها.

فكما تنشئ هذه المدارس في تلامذتها عقولا كونية، غير أنها في الوقت نفسه تعمل على تعريف التلميذ على ما يحتويه من قوى نائمة

تشكل الجانب الأعظم من قواه الفكرية والنفسية، فتعمل على إيقاظها وتفعيلها واستخدامها مع قواه الظاهرة في بناء مستقبله الثقافي والفكري. فقد بقينا زمنًا طويلا نعاني من تسلط العقول الكبيرة على ما في عقولنا من ضعف وخلل، ومن هنا كان بناء العقول الكبيرة والقوية من أولويات هذه المدارس بحيث تمنع أي تسلط يقع عليها أيًّا كان.

ومما يحمد لهذه المدارس سعيها إلى دحض ما ترسب في قرارة تلامذتنا من شعور بالنقص والدونية إزاء الإمكانات العقلية التي يمتلكها تلامذة الغرب، وهو وهْمٌ تحاول هذه المدارس إبطاله.

فالعقل البشري -كما ترى هذه المدارس- مُصَمّمٌ من قبل الخالق جل شأنه لاستقبال الإشارات الماورائية الحافزة للبحث عن حقائق الأشياء وسبر أغوار الظواهر الوجودية وإمعان النظر فيها. الأمر الذي ينتهي في التلميذ إلى بناء بصيرة نافذة وعقل بحثي استقرائي واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليمارس هذه الاستعدادات الذهنية في أبحاثه العلمية والفكرية في مغاليق الكون والطبيعة والإنسان.

فتلميذ هذه المدارس سيلمس وهو يرتقي من صَفٍّ إلى صفٍّ فوقه، أن العقل الذي في رأسه له من الأبعاد والفضاءات مثل أبعاد الكون وفضاءاته. وأنه بقدر امتداد عقله في الأشياء تتكشف له هذه الأبعاد والفضاءات أطباقًا من فوق أطباق، فلا يدري ومن حقه أن يتساءل: "هل الكون خُلِق على مثال العقل، أم العقل خلق على مثال الكون...؟! أو أنهما ينبوعان عظيمان تتدفق منهما الأشياء وإليهما تعود...؟!".

وإنَّ ممَّا يلفت النظر ويثير العجب في خريج هذه المدارس هو هذا التوافق والتواؤم بين ما يمتلكه من روحية عالية مرهفة، وعلمية آفاقية

جامعة، فنحن هنا بإزاء روحية علمية، أو إن شئت قلتَ علمية روحية، وهذا النموذج من خريجي هذه المدارس يوجّه صفعة قوية لمَنْ يرى أن "الروح" و"العلم" نقيضان لا يلتقيان ولا يجتمعان في إهاب إنسان.

فالروحية العلمية، أو العلمية الروحية، تتجسَّم أحسنَ ما تتجسم في تلامذة "مدراس النور" كما يؤكد ذلك جَمٌّ غفير مِمَّنْ شاهد عن قرب هؤلاء التلاميذ في مدارسهم أو بيوتهم أو في أماكن أعمالهم.

وهذه "الروحية العلمية" هي أُسُّ أساس فلسفة "كولن" في التربية والتعليم، وهي المقصد الأساس من إنشاء هذه المدارس.. فخريج هذه المدارس كبير الثقة بنفسه، لا يشكو من كآبة الانفصام عن عصره. فهو في مزاج تفاؤلي دائم بالحياة يجعله يحياها بأبعادها كلها دون أي إحساس بالتخلف عن روح عصره.

إنّ أسوأ شيء تعاني منه شعوبنا اليوم، هو ضعف شعورها بحقيقة وجودها، أو بالأحرى بأحقية هذا الوجود، فهي موجودة وغير موجودة، حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، حتى إننا لم نَرَ جدوى من التفكير في الحفاظ على هذا الوجود الشبحي، ولم نجد دافعًا قويًّا يدفعنا إليه، فترَكنا للآخرين مهمّة التفكير لنا، وانطوينا على أنفسنا في انكفاء إحباطي نعاني النفي خارج دائرة العقل، وقالوا لنا: "أنتم لا تحسنون التفكير فدعونا نفكر لكم..!"، ففكروا لنا كما يريدون لنا أن نكون لا كما نريد نحن أن نكون. وأجلسونا على مقاعد التعلم كتلاميذة قُصَّر نتلقى منهم الأفكار التي يريدون زرعها في عقولنا، وربطوا هذه العقول بأنظمة تكرس لمزيد من الخمول العقلي والإحباط النفسي. لقد أرادوا لنا أن نمارس عملية انفصال رهيب عن تاريخنا الروحي، وعطلوا قوانا الإدراكية بالماضي والمستقبل،

ومارسوا معنا إرهابًا فكريًّا جعلنا نخاف من وجودنا الأعلى، وجمدوا فينا الإحساس بالعقل الجمعي الذي نؤوي إليه في الملمات، وملأوا عقولنا بفراغات هائلة نظل نعوم فيها فلا نصل بعد الجهد الجهيد إلى شيء، وظل الرعب من الفراغ المجهول يقض مضاجعنا، ويقذف بنا على شفا جرف حاد من هاوية الهلاك... فكان حصيلة هذا كله خيالا مريضًا تعكسه عقلية متعبة منهوكة تعاني الحيرة والضلال في شعاب العقول... لقد حملنا جوعنا الروحي وذهبنا في أبعاد الأرض ورجعنا من هذه الرحلة المشؤومة بمزيد من جوع الروح، وبمزيد من ضلال العقل...!

إننا ونحن نعيش هذه الإحباطات لنتجه بآمالنا إلى هذه المدارس النورانية وإلى خرّيجيها من أصحاب القلوب السماوية والعقول الكونية ليقودوا سفينة الحياة في هذا الخضمّ الطامي من الأفكار والمعتقدات... وإننا على ثقة بأنهم سيكونون دائمًا عند حسن الظن، وحسن الأمل والرجاء.